الفصل الرابع

المذهب الشيعى فى إيران

كانت إيران منذ الفتح الإسلامى حتى سنة ١٥٠١م تعتنق غالبيتها الساحقة المذهب السُّنى. ومن هنا كان من الخطأ الفاحش الربط بين المذهب الشيعى والمذهب الفارسى. بل إن الدولة الصفوية التى فرضت المذهب الشيعى مذهبا رسميا فى إيران كانت فى الأصل فرقة صوفية سُنِّية المذهب، وتحولت تدريجيا إلى المذهب الشيعى تحت تأثير الخصومة العنيفة بينها وبين الدولة العثمانية التى كانت تحمل لواء المذهب السُّنى فى الشرق الأوسط.

كان الشيعة إذن فى إيران – منذ الفتح الإسلامى حتى استيلاء الصفويين على الحكم فى إيران سنة ١٥٠١ بزعامة شاه إسماعيل – أقلية ضئيلة ربما لا تتجاوز العشرة فى المائة. ولم يكوّنوا جماعة متجانسة، بل كانوا فرقا شتى قد تزيد على الثلاثين، كما يتبين من كتاب «فِرق الشيعة» للنوبختى وإن كان أكثرها عددا هى فرقة الاثنا عشرية.

وقد جلب المذهب الشيعى إلى إيران فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بعض العرب الوافدين من جنوبى العراق العربى، الذين استقروا فى «الجبال» أى فيما سمِّى باسم «العراق العجمى» فى شمال إيران جنوبى بحر قزوين. وكانت مدينة «قم» هى أكبر مركز روحى لهؤلاء الشيعة، وحولها كانت أكبر تجمعاتهم البشرية. لكن كان هناك بعض الجماعات القليلة من الشيعة فى خراسان، ونيسابور، وهراة، وطوس. وكانوا فى هذه المدن يسكنون فى أحياء خاصة بهم. كما وجدت جماعات شيعية فى بيهق، وسبزوار، وأماكن متفرقة من إقليمى خوزستان وفارس فى جنوب غربى إيران.

ومن بين فرق الشيعة كانت فرقة الزيدية تتولى الإمارة فى مازندران (المحاذية للشاطئ الجنوبى لبحر قزوين)، واستمرت هذه الإمارة عدة قرون برغم ما أصابها من كوارث وتقلبات. والزيدية هى أقرب فرق الشيعة إلى المذهب السُّنى حيث تقر بخلافة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب، بعكس سائر فرق الشيعة فإنها ترفضهما، ومن هنا يسمون أيضا باسم «الرافضة». ولا يوجد زيدية فى العصر الحاضر إلاّ فى المناطق الجبلية فى اليمن الشمالى، حيث توجد عاصمتهم الروحية «صعدة». وقد كان لزيدية مازندران الفضل فى

نشـر الإسـلام فى رجان وجيلان وبلاد الديلم. وفى بلاد الديلم كانت تقيم قبيلة قوية هى آل بويه البويهيون، وقد استطاع البويهيون الاستيلاء على السلطة فى إيران ثم فى العراق، ولكنهم وهم على المذهب الزيدى لم يمسسوا الخلافة السُنية فى بغداد عندما استولوا عليها عام ٣٢٠ هـ - ٩٤٥ م وصاروا هم المتحكمون فى الخلافة العباسية فى شطرها الشرقى. لكنهم فى الوقت نفسه شجعوا المذهب الشيعى، وأسسوا الاحتفالات الشيعية الرئيسية كعيد غدير خُم، وعاشوراء فى ١٠ محرم ذكرى معركة كربلاء التى استشهد فيها الإمام الحسين بن على وصفوة من آل البيت، إذ لا نجد ذكرا للاحتفال بهذين العيدين إلاّ فى عهد البويهيين.

وبدأت فرقة الإسماعيلية (وهم الذين يقولون بانتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل الذى توفى فى حياة أبيه، بينما الاثنا عشرية ينقلونها إلى ابنه الآخر موسى الكاظم الذى عاش بعد وفاة أبيه جعفر الصادق) - بدأت تنشر دعوتها قبل نهاية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى). وتولى هذه الدعوة فى أول الأمر القرامطة الذين جاءوا من الساحل الغربى للخليج وارتحلوا إلى خوزستان. ومن خوزستان انتقل الداعى الإسماعيلى، المسمى بـ «خَلَف» إلى الجبال، وجعلوا لهم قاعدة فى مدينة الرى (طهران الآن). ولهذا ظلّ إسماعيلية إيران مدة من الزمان يلقبون بلقب «الخلَفية». نسبة إلى خلف هذا. وقد توسعوا فى دعوتهم فى خراسان، وبلاد ما وراء النهر (بخارى وما حولها) وفى المناطق المحيطة ببحر الخزر (بحر قزوين)، لكنهم لم يفلحوا فى نشر مذهب الإسماعيلية، وبالتالى فى نشر المذهب الشيعى فى تلك المناطق من شمال شرقى إيران. وربما كان أبرز نجاح لهم هو أن الداعى الإسماعيلى محمد بن أحمد النسفى قد استطاع أن يحول الأمير نصر الثانى بن أحمد بن سامان إلى المذهب الشيعى، والنجاح فى الاستيلاء على بعض القلاع المعزولة فى إيران.

لكن السلاجقة انتصروا على البويهيين، وصاروا هم حكام المناطق الشرقية من بغداد شرقا حتى الهند. وكان السلاجقة على مذهب السُّنة، فطاردوا المذهب الشيعى فى العراق وفى إيران. وكان السلاطين السلاجقة على مذهب أبى حنيفة فى الفقه، لكن وجد فى زمانهم نخبة من أئمة الشافعية مثل إمام الحرمين وأبى حامد الغزالى، وكان يؤيدهم الوزير نظام الملك، الذى كان على مذهب الشافعى. بيد أن الشيعة لم يُبعدوا عن كل المناصب الكبيرة فى الدولة فى أيام السلاجقة، بل منهم مَن وصل إلى مرتبة «وزير»، وجرت بين

علماء السُّنة وعلماء الشيعة مناظرات عديدة. يرويها لنا كتاب «بعض مثالب النواصب فى نقد فضائح الروافض» تأليف نصر الدين أبو الرشيد عبد الجليل القزوينى الرازى. وفيه يدافع عن الشيعة ضد هجمات علماء السنة. (النواصب هم السُّنة. الروافض هم الشيعة).

ومنذ سقوط الدولة البويهية على يد السلاجقة فى سنة ٤٤٧هـ (سنة ١٠٥٥م) كان للمذهب السُّنى السيطرة الشاملة فى كل إيران. ولم يكن عدد الشيعة يتجاوز العشرة فى المائة. لكن بتولى شاه إسماعيل الصفوى فى سنة ٩٠٦ هـ (عام١٥٠١م) الحكم فى إيران، بدأت الآية تنقلب، وبدأ التحول الكبير فى الأحوال المذهبية فى إيران. فقد أعلن شاه إسماعيل أن المذهب الشيعى هو المذهب الرسمى للدولة. وأمر المؤذنين باستخدام صيغة الأذان المألوفة عند الشيعة (وهى إضافة عبارة: حى على خير العمل) فى الأذان. وأمر الخطباء على المنابر فى أيام الجمعة بلعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل أبى بكر، وعمر، وعثمان من فوق المنابر فى خطبهم! وادعى شاه إسماعيل أنه من نسل الإمام الشيعى الثامن، وهو ادعاء كاذب لم يقم عليه أى دليل. وتولى فرض المذهب الشيعى بالقوة جنود القزلباش. وهم من قبائل التركمان وبيدهم صارت القوة الفعلية فى إيران فى عهد الصفويين.

واستعان الصفويون فى تقرير المذهب الشيعى الاثنا عشرى فى إيران بعلماء من الشيعة استقدموهم من جبل عامل (فى جنوب لبنان) ومن البحرين (أىّ الشاطئ الشمالى الغربى للخليج. ويشمل الآن منطقة الإحساء فى السعودية وشاطئ الخليج الممتد من هناك حتى بداية دولة الإمارات، ولا علاقة لدولة البحرين الحالية بـ «البحرين» المذكورة فى كتب التاريخ الإسلامى من القرن السابع الميلادى حتى القرن التاسع عشر الميلادى)، وقد قام هؤلاء العلماء الشيعة الواردون من خارج إيران بتقوية السلطة الفعلية لرجال الدين فى إيران، وهى ظاهرة ستتعاظم شيئا فشيئا طوال القرون التالية حتى اليوم.

وقد اعتمد هؤلاء العلماء من رجال الدين فى تطلعهم إلى السلطة الزمنية على نظرية تقول إنه منذ غيبة الإمام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى الذى غاب الغيبة الكبرى وهو فى سن السادسة فى مدينة سامراء (بمنطقة الحلة فى جنوب العراق)، فإنه مع ذلك يحكم العالم، لكنه طالما كان مستورا فإن من يتولى تفسير مشيئته هم رجال الدين.

وفى عهد الدولة الصفوية كانت أعلى المراتب الدينية هى مرتبة «الصدر»، ويتولى تصريف الشئون الدينية بوجه عام والإشراف على المؤسسات الدينية. وينوب عنه فى معظم

المدن الكبرى: «شيخ الإسلام»، ومهمته الرئيسية هى الإشراف على المحاكم الشرعية فى إقليمه أو مدينته.

لكن فى نهاية القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى) تدهور لقب «الصدر» وحلّ محله منصب: مُلا باشى (أى: رئيس رجال الدين) وكان رجال الدين يتعيشون من ريع الأوقاف، ومنهم مَن جمع ثروة طائلة فصار ذا مكانة قوية عند عامة الناس.

وكان رجال الدين الشيعة ينقسمون إلى مرتبتين: المرتبة العليا هى مرتبة «العلماء»، والمرتبة الدنيا هى مرتبة «المُلا». وكانت مهمة أبناء هذه المرتبة الدنيا التعليم والإشراف على العبادات.

أما «العلماء» فقد انقسموا إلى فريقين متعارضين: «الإخباريون» وهم التقليديون المتمسكون بالمنقول دون المعقول، أى بأحاديث الرسول ﷺ وأئمة الشيعة، ثم «الأصوليون» وهم الذين لهم الحق فى الاجتهاد فى أمور الفقه والعقيدة، وعلى سائر الناس أن «يقلدوا» هؤلاء المجتهدين، ومن ثم نشأ نظام ما يسمى بـ «مرجع التقليد»، أى المجتهد المقر له بالاجتهاد والذى يجب على سائر الناس تقليد ما ينتهى إليه فى اجتهاده.

مراجع التقليد

من الثابت أن هذا المنصب، مرجع التقليد، إنما يرجع إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى (الثانى عشر الهجرى)؛ كما يبين ذلك طالقانى، ويرى د. مرتضى مطهرى أنه بدأ مع المجدد شيرازى (ميرزا حَسَن، المتوفى سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م وهو مدفون فى (النجف)، ويرى البعض الآخر أنه يبدأ بوحيد بهبهانى (المتوفى سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م مدفون فى كربلاء) ويرى بعض رابع أنه يبدأ مع الشيخ مرتضى أنصارى (ملاً مرتضى بن محمد أمير، المتوفى سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م ودفن فى النجف).

لكن كما هو المألوف فى مثل هذه الأحوال، راح البعض - وما أكثرهم فى مثل هذه المواقف يصاعد بتاريخ هذا المنصب إلى الإمام الثانى عشر، فزعموا أن هذا الإمام الغائب قد عين قبل غيبته، أربعة «نائبها خاص» (نواب خصوصيين) أو الثوابت الأربعة الذين يتولون تفسير مشيئة الإمام الغائب بعد غيبته! وقد غاب الإمام الثانى عشر (محمد بن الحسن العسكرى) فى سنة ٣٢٩هـ (٩٣٩ م). وهؤلاء النواب الخصوصيون هم عثمان بن سعيد، وابنه محمد، وابن القاسم الحسين بن رَوح النوبختى، وعلى بن محمد الثمرى (المتوفى سنة ٣٢٩هـ ٩٣٩م).

أمـا بعد هؤلاء النـواب الخصوصيين فقد وجد نواب عموميـون (نائب عام) وهم الذين يلقبون بلقب (مراجع التقليد).

أما لقب «آية الله» فيلقب به رجال الدين بعامة فى إيران. وأما مراجع التقليد فيلقبون بلقب «آية الله العظمى».

والناس يقدمون «الخُمس»، وهو النصيب المفروض للنبى- إلى من يشاؤون من آيات الله فى الأقاليم، أو إلى «آية الله العظمى».

وهذا الخمس من المفروض أن ينفقه آية الله، أو آية الله العظمى فى:

- إنشاء المدارس وتعليم الدين لعامة الناس.
- على المعاهد الدينية أى الحوزات العلمية، التى يتخرج فيها رجال الدين ويسـمون بعد تخرجهم: أخوندة (والجمع: أخوندات).
- بناء المستشفيات والإنفاق عليها.
- إنشاء دفتر «خيرات إسلام» يتولى توزيع الخيرات على الفقراء.
- تشجيع قيام المصارف الإسلامية.
- صرف مرتبات لرجال الدين فى مناطقهم، لأن رجال الدين من حيث المبدأ يرفضون أن يتقاضوا مرتبات من الحكومة، لأن كل حكومة بحسب نظرهم ظالمة إلى أن يأتى المهدى فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورا.

المدارس الدينية

ونشاط هؤلاء المراجع ينطلق أساسا مما يسمى «حوزة علمى» أى مركز دراسات دينية.

والمدرسـة الدينية فى إيران مؤسسـة حرة مستقلة عن الدولة فى كل شىء: فى إدارتها ونظامها الدراسى، وموازنتها ومواردها، وأهمها تلك الموجودة فى مدينة «قم».

وبعض هذه المدارس قديمة ترجع إلى عهد الصفويين، والبعض الآخر أنشـىء فى عهد رضا شاه وابنه محمد.

أعياد الشيعة

أعياد الشيعة كثيرة وتستمر طوال العام الهجرى، والأعياد الرئيسية هى:

- التاسع والعاشر من شهر المحرم: تاسوعاء، وعاشوراء، وفيهما يحتفل باستشهاد الإمام أبى عبد الله الحسين بن على فى معركة كربلاء.

- الاحتفال بمولد النبى محمد فى ١٧ ربيع الأول وهو نفس اليوم المخصص للاحتفال بمولد الإمام السادس جعفر الصادق.
- الاحتفال بإسراء النبى «المعراج» فى ٢٧ رجب.
- الاحتفال بمولد الإمام الثانى عشـر، قائم الزمان، الحُجة، محمد بن الحسن العسكرى فى ١٥ شعبان.
- عيد الفطر فى أول شوال.
- عيد الأضحى (عيد قربان) فى ١٠ من ذى الحجة.
- عيد الغدير فى ١٨ ذى الحجة وفيه يحتفل بما يعتقده الشيعة من أن النبى قبل وفاته وعند غدير خم قد أوصى لعلى بن أبى طالب بالخلافة بعده مباشرة.

وإلى جانب هذه الأعياد الرئيسية توجد أعياد أو احتفالات ثانوية منها:

- وفاة النبى محمد ﷺ فى ٢٨ صفر.
- وفاة كل إمام من الأئمة الاثنى عشر وخصوصا:

(أ) وفاة الإمام الرضا فى ٣٠ صفر، وهو يوم عطلة فى مشهد.

(ب) وفاة الإمام على بن أبى طالب فى ٢١ رمضان.

(جـ) وفاة الإمام جعفر الصادق فى ٢٥ شوال.

(د) ميلاد كل واحد من الأئمة الاثنى عشر.

(هـ) مولد ووفاة فاطمة الزهراء.

وهكذا تستغرق الاحتفالات بمولد ووفاة النبى محمد ﷺ وفاطمة والأئمة الاثنى عشر ٢٨ يوما فى السنة، وإذا أضيفت إلى الأعياد الستة الأخرى كان المجموع ٣٤ يوما.

أما السُنة فلا يحتفلون إلا بالعيدين (الفطر والأضحى) ومولد النبى ومعراجه، أى بأربعة أعياد فقط.

وفى أيام الاحتفال بتاسوعاء وعاشوراء ووفيات النبى والأئمة الاثنى عشر تمتنع الإذاعة عن بث أية أغان أو موسيقى. وتقتصر على الأخبار وقراءة القرآن وإلقاء المواعظ وكلمات الذكرى.

عاشوراء

وأجل هذه الاحتفالات وأحفلها بالمشـاعر والانفعالات الاحتفال بعاشـوراء الذى يتخذ ثلاثة أشكال:

❑ روضة خان: وهو اجتماع يعقد فى مسجد أو فى منزل، ويشهده الرجال والنساء، كل فريق منفصل عن الآخر لكن فى نفس المكان. ويأخذ واعظ فى سرد مصرع الحسين فى كربلاء. وفى أثناء وصفه لمصرع الحسين ينطلق البكاء من الحاضرين والحاضرات، وتنبعث أصوات النحيب والصراخ من السيدات خاصة.

❑ مسيرة مواكب (دستجات) فى الشوارع الرئيسية فى المدن مؤلفة من:

(أ) تلاميذ وتلميذات المدارس وهم يلبسون جلابيب سوداء وفى أيديهم حزما من أعواد حديدية يضربون بها ظهورهم وصدورهم.

(ب) شباب بين الخامسة عشرة والثلاثين، غالبا من العمال والفلاحين، يقرعون صدورهم نصف العارية بقبضات أيديهم وبقسوة تتزايد مع تزايد حماسة الشباب الإيمانية، فتسمع لضرباتهم أصواتا مروعة.

(جـ) كهول وشيوخ بعمائم أو كلاهات، وهؤلاء يكتفون بإبداء علامات التأثر والحزن على وجوههم، وبينهم رجال يصيحون بين الحين والحين بنداءات مثل: «يا حسين»، «روز عاشوراء يوم قياقب بزرج»، ويمر الموكب على إيقاع طبول رتيب متقطع[1].

❑ التعزية: وهى تمثيليات بدائية، تشبه الميستير Mysteres عند المسيحيين فى العصور الوسطى، وهذه التمثيليات بالفارسية الشعبية غالبا، ويتولى إلقاءها ناس من عامة الناس، وهى مكتوبة فى أوراق يقرأون منها وقد طبع بعضها فى كتب.

رجال الدين

مُلا: لقب يطلق على رجل الدين فى إيران بوجه عام، ويناظره فى مصر كلمة: شيخ إذا أُطلق على رجل دين، ويطلق على أصغرهم مرتبة كما يطلق على أكبرهم مرتبة وعلما.

أخوند (وأخوندا): لقب أخص من مُلا، ولا يستعمل إلاّ لمن حصل على درجة علمية من معهد دينى، ويطلق غالباً على طلبة المعاهد الدينية.

آية الله: لقب اختص به رجال الدين فى إيران الذين بلغوا درجة «مجتهد» بإجازة من أستاذ.

آية الله العظمى: يطلق هذا اللقب على أقطاب رجال الدين، وعددهم فى العصر الواحد يتراوح بين خمسة وعشرة وليس هناك معيارا بموجبه يطلق هذا اللقب على من يطلق عليه،

(١) المرجع السابق – ص ٣١٧.

ولا توجد هيئة أو سلطة تمنحه. إنما هو عرف يشيع بين رجال الدين، ولا ضابط لإطلاقه أو استعماله.

ورجل الدين فى إيران تتميز هيئته الخارجية بما يلى: «عمامة» على رأسه، و«عباية» فوق جلباب أو قفطان تغطى كل جسمه، ويلبس فى قدميه نعلين، وله لحية تشمل سالفيه وذقنه، والعمامة إمّا سوداء، وإما بيضاء، وإما خضراء. والخضراء يلبسها من يزعمون أنهم من نسل الإمام على، كما هى الحال فى سائر البلاد الإسلامية، والعمامة السوداء هى لمن هو «سَيِّد».

ومن أهم الوظائف التى يتولاها رجال الدين فى إيران وظيفة «إمام جُمعة» أى من يؤم المصلين فى «مسجد جمعة» «زو مسجد جامع» فى المدن الكبرى، أمّا فى القرى وفى المساجد الصغيرة بالمدن فيؤم المصلين «إمام جماعت» أو «بيش نماز»، و«إمام جمعة» فى مسجد كبير يتقاضى مرتبا من الحكومة، ولهذا كانت الدولة هى التى تعينه. أمّا «إمام جماعت» فيختاره أهل القرية أو أهل الحى فى المدينة، ومنهم يتقاضى معاشه.

ولما كان زواج «المُتعة» أى الزواج المحدد بمدة معينة – مباحا عند الشيعة، فأحيانا يعرض للمرء وهو فى مسجد كبير أن يهمس فى أذنه أحد رجال الدين قائلاً: صيغة ميخم؟ (أى: هل تريد عقد زواج متعة؟)، ويتكفل رجل الدين هذا بتقديم الفتاة أو المرأة التى يتولى هو عقد الزواج بها عقد متعة. وقد يحدث هذا أيضاً فى الشارع.

محاولات إصلاح رجال الدين

ونظرا لانحطاط المستوى العلمى عند رجال الدين فى إيران، دعت جماعة منهم فى سنة ١٩٦٢ إلى إصلاح المستوى العلمى لرجال الدين، لكنهم اقتدوا فى ذلك بآية الله بروجردى الذى لم يكن واسع الأفق، بل تقليدى الفكر والتحصيل. ولهذا جاءت ثمرة دراساتهم هزيلة، وقد صدرت فى كتاب بعنوان: «بحث دربارة مرجعية وروحانية» (سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٦٢م).

وعملا بما دعا إليه بروجردى نادوا بالتعمق فى فهم الأحاديث، وبالاجتهاد فى الفقه، وبالاطلاع والاهتمام بالمشاكل المعاصرة. وكان الحسين بروجردى (المتوفى سنة ١٩٦١) قد قام بالتعليق على كتاب «وسائل الشيعة» للحر العاملى؛ فتولى تلاميذ البروجردى هؤلاء تكملة شرح البروجردى وذلك فى كتاب بعنوان «تهذيب الوسائل».

وفى الوقت نفســه قام بعض العلماء بنشر خطبهم ودراساتهم فى مجلة شهرية عنوانها «كفتــار ماء» (الخطب الشــهرية)، وفيها حاولوا تقديم آرائهم فى المشــاكل الحالية، كما أنشأوا دارا ومسجدا لهم فى الشمال الشرقى من طهران سموها باسم «حسينية إرشاد».

وقد لعبت «حسينية إرشاد»هذه دورا بارزا فى عرض آراء دعاة الإصلاح طوال الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضى إلى أن أغلقت فى سنة ١٩٧٣.

وفــى هذه الحســينية برز د. على شــريعتى، الذى ولد فى ســنة ١٩٣٣ فى محافظة خراســان وكان أبوه رجل دين منفتحا هو الأســتاذ محمد تقى شــريعتى. ودرس فى كلية الآداب بجامعة طهران، وهنا بدأ نشاطه السياسى، وكان ذلك فى عهد حكومة د. مصدق. ثم ســافر إلى باريس، ودرس فى الســوربون من ١٩٦٠ حتى ١٩٦٤، وفى أثناء إقامته فى باريس اتصل بالمناضلين الجزائريين وبحركات التحرير النشطة فى باريس.

وبعد أن حصل على الدكتوراة، عاد ليكون مدرسا للتاريخ فى كلية الآداب بجامعة مشهد. ثم انتقل إلى طهران، وصار يلقى محاضرات فى «حســينية إرشاد» فى طهران، والتف حوله العديد من الشباب. ولما كان مضمون هذه المحاضرات فى الغالب سياسيا وثوريا وموجها ضد حكومة الشاه محمد رضا بهلوى، فقد أودع السجن، وظل فى السجن ١٨ شهرا. وفى ربيع ســنة ١٩٧٧ ترك إيران وســافر إلى لندن، وهناك أصيب بأزمة قلبية توفى على إثرها فى ١٩ يونيو سنة ١٩٧٧.

ولب دعوة على شريعتى هو تجديد الإسلام الشيعى، وذلك بالطرق الثلاث التالية:

- التركيز على الجانب الاجتماعى فى الإسلام، وغض النظر عن الجانب اللاهوتى.
- تفســير القرآن على أســاس أنه يهتم بالمبادئ الاجتماعية أكثر من اهتمامه بالعبادات، ومــن أجــل هذا قام على شــريعتى بتحليل المفاهيم الرئيســية فى القــرآن مقارنا إياها بنظائرها فى الفكر الأوروبى، مبينا أن للمعانى الرئيســية فى القرآن مدلولا ديناميكيا، لا استاتيكيا: فـ «الأمة» هى الجماعة الثائرة التقدمية، و«القبلة» هى الهدف من التقدم الاجتماعى للناس إلخ.
- بيان التعارض الحاد بين المجتمع الإسلامى السليم وبين المجتمع الأوروبى الديمقراطى الرأسمالى، وفى هذا المجال يقول إن الغرب لكى يتمكن من اســتغلال العالم الإســلامى قد صرف العقول الإسلامية عن حقيقة الإسلام.

صحيح أن نفس المعانى ترد فى خطب رجال الدين التقليديين؛ بل هى بضاعتهم فى خطبهم المنبرية الأسبوعية، لكن الجديد عند على شريعتى هو فى الصياغة التى يصوغ بها أفكاره هذه، إذ يستعمل الاصطلاحات والمفاهيم العصرية المألوفة خصوصا عند الكتاب التقدميين مثل فرانز فانون franz fanon وسارتر مثل «ديالكتيك، مغايرة، دينامية، التفسير التاريخى، الأصالة».

وإجمالا تتسم كتابات على شريعتى بهذه الرطانة المألوفة عند «الكتاب الثوريين» فى العالم العربى والإسلامى ودول العالم الثالث. ولما كان يربط آراءه بالإسلام فإنه يستشهد مرارا بآيات من القرآن، لكنه يؤولها تأويلا ملتويا مفتعلا حتى يستطيع أن يسند إليها وجهات نظره، وإذا ما حللت أقواله لم تخرج منها بأى معنى محدد يصلح للتطبيق العملى. ومن هنا لم تضع «الثورة الإسلامية»(انقلاب إسلامى) أى رأى من آرائه موضع التطبيق على الرغم من التعاطف الذى أبدته بعض أوساط الثورة نحوه إذ عدته من «المناضلين» الذين أسهموا فى التمهيد لقيام الثورة.

على أنه مما يحمد لعلى شريعتى أنه بخلاف علماء الشيعة أقر بصحة خلافة أبى بكر الصديق، وفى سبيل ذلك أورد الروايات التى تؤيد ذلك، ومنها:

- أن النبى أمر بإغلاق كل الأبواب التى كانت تفتح لمسجد الرسول، إلا باب أبى بكر. والشيعة ينكرون هذه الرواية، ويحتجون بأن الراوى لها هو عكرمة، وعكرمة عندهم كذاب.
- وأن النبى فى آخر عمره مرض مرضا شديدا منعه من أن يؤم المصلين، فحل أبو بكر محله، ولما تحسنت صحة النبى أتى إلى المسجد، ورفض أن يؤم المصلين، وصلى إلى جانب أبى بكر، والشيعة يضعفون هذا الخبر.
- يستند إلى آيتين فى القرآن عن الشورى، ويستنبط منهما أن هاتين الآيتين تقرران أن الخلافة بالشورى، أى بالانتخاب، وهو أمر ينكره الشيعة، لأنهم يرون الخلافة بالوراثة، على فابنه الحسن، فأخوه الحسين، فابنه على زين العابدين، فابنه محمد الباقر، فابنه جعفر الصادق، فابنه موسى الكاظم، وهكذا.
- ويقول: «كم كان الإسلام سيكون قويا فى التاريخ لو أن المسلمين نبذوا الخلافات فيما بينهم! إذن لكان أبطال السُّنة، مثل صلاح الدين الأيوبى، أبطال الشيعة أيضا.

ـ ويقول إن عليا أخبر فاطمة الزهراء أنه سيبايع أبا بكر على الخلافة، لكن علماء الشيعة يؤكـدون أن عليـا لم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاة فاطمة، ويزعمون أن فاطمة ألقت خطبا أكدت فيها عدم شرعية انتخاب الخليفة.

وبسـبب آرائه هذه القريبة جدا من آراء أهل السـنة، هاجمه بعض علماء الشـيعة مثل آية الله ناصر مكارم.

وهو فى سـبيل هذا التقريب بين السُّـنة والشـيعة ينعى على الصفويين أنهم هم الذين أججـوا نـار الخلاف بأن أمـروا الخطباء فى المسـاجد بلعن أبى بكر وعمـر، وهوّلوا فى الاحتفال بعاشوراء، وعملوا على إبراز أوجه الخلاف.

كذلك يحمد لعلى شـريعتى نقده المر للنزعة الشـكلية عند رجال الدين، فهم لا يهتمون إلاّ بالشـكل فى العبادات، ولا يهتمون بجوهر الإسـلام من حيث هو فى المقام الأول نظام اجتماعى يقوم على العدالة وإنصاف المحرومين. فيقول مثلاً: «نحن نجادلهم ببلاهة حول أن هـذه الجماعة تـؤدى الصلاة والذراعان مضمومتان، بينما تلـك الجماعة الأخرى تؤدى الصلاة والذراعان مبسوطتان».

ويحمـد له ثالثا هجومه على ماركس والاشـتراكيين الأوروبيـين لأنهم- كما يقول- لم يحفلوا أبداً بالعالم الثالث والدول التى اغتصبها وامتص ثرواتها الاسـتعمار، وإن كان همّ ماركس والاشـتراكيين الأوروبيين الوحيد هو المطالبة بإشـراك العمال الأوروبيين فيما نهبه الاستعمار الأوروبى من ثروات العالم الثالث.

الموقف من تحرير المرأة

ومن المسـائل التى شغلت رجال الدين فى العهد البهلوى مسألة تحرير المرأة، ذلك أن رضا شاه قد أصدر فى سنة ١٩٣٦ قانونا يمنع المرأة من الاحتجاب، وعرف بقانون «كشف حجاب». وكانت المرأة الإيرانية فى المدن خصوصا قد تعودت أن تلبس ما يسمى «جادر»، أو الشادور الذى يناظر ما يعرف فى العراق بـ «العباية».

فتصـدى لهـذا القانون رجـال الدين. وعلى الرغم مـن أنه بعد إرغام رضا شـاه على التخلـى عن العرش لابنه محمد فى سـنة ١٩٤١ لم يعد لهـذا القانون حضور فى الواقع، وعادت الكثيرات فى النساء إلى لبس الـ «جادر» فإن رجال الدين ظلوا يثيرون هذا الموضوع ويتوسعون فيه بحيث جعلوا منه موضوعا أهم وهو «تحرير المرأة» بعامة.

ومن العلماء الذين خاضوا فيه فى الستينيات من القرن الماضى سيد محمد حسين طباطبائى، فى بحث له بعنوان: «زن در إسلام» (المرأة فى الإسلام، مكتب تشيع، سنة ١٩٥٩)، ويحيى نورى فى كتابه: «حقوق زن در إسلام وجهان» – حقوق المرأة فى الإسلام وفى العالم»، طهران سنة ١٩٦٤، وشيخ قوام وشنوئى فى كتابه: «حجاب در إسلام» (الحجاب فى الإسلام) «قم» سنة ١٩٧٢ ومرتضى مطهرى فى كتابه: «مسائل حجاب» (طهران، سنة ١٩٧٤).

وفى البداية أعلنوا أنه لا محل لقيام مشكلة تحرير المرأة فى البلاد الإسلامية كما هى الحال فى البلاد الأوروبية. لأن الإسلام رفع مكانة المرأة من مجرد سلعة إلى شخص كامل له كافة الحقوق، فالإسلام يبيح للمرأة أن تعمل، وأن تتعاقد، وأن تكون لها ملكية خاصة بها مستقلة تماما عن ملكية زوجها، ولها الحق فى اختيار الزوج، والحق فى طلب الطلاق إن نص فى عقد الزواج على أن عصمتها بيدها، ولها نصيبها فى الميراث. وكل هذه الحقوق التى للمرأة فى الإسلام محرومة منها المرأة الأوروبية، والمرأة لها الحق فى الإسلام فى أن تكشف وجهها ويديها، وأن تسافر وتنتقل من أى مكان إلى آخر.

وكل ما طالب الإسلام به النساء هو أن يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، أى إن لا يثرن شهوة الرجال وأن يتحلين بالعفة، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر ويغطين نحورهن.

وينعى ناصر مكارم «مشكلة جنس جوانان» (المشكلة الجنسية، «قم» سنة ١٩٧١) أن الكشف عن جمال المرأة يفضى بالرجال إلى الجنون ويغرى الرجال بطلب ما لا يستطيعون الوصول إليه، ويرى أن الصور العارية فى المجلات الجنسية تحرض الشباب على الخطأ.

ويؤكد مطهرى أن التحرر الجنسى يدمر الحب والزواج بوصفه رابطة أسرية.

ويستشهدون على ذلك بأن الحب فى الغرب مفقود، بسبب الحرية الجنسية. فأين تجد فى الغرب أمثال ليلى ومجنون ليلى، وخسرو وشيرين؟ لقد تحطم الحب فى الغرب وتحطمت الأسرة بسبب التحرر الجنسى.

أما عن دعوى المساواة التامة بين الرجل والمرأة فى كل شىء فيدحضها التركيب البيولوجى لكليهما، فالمرأة تحمل، ويستمر حملها تسعة أشهر، والمرأة تحيض لمدة أربعة أو خمسة أيام كل شهر قمرى، كما أن المرأة أشد انفعالاً، وأكثر تقلباً، وأشد أنانية.

ولهذا يقول طباطبائي إن المرأة لا يجوز أن تكون قاضية، ولا مجتهدة.

ويستشهد بعضهم مثل يحيى نورى بالأبحاث البيولوجية فى القرن التاسع عشر والتى تقوم على إحصاءات أجريت على النساء يستخلص منها أن مخ المرأة أقل حجما من مخ الرجل، ولهذا يرى أن القضاء والحرب والحكم يجب أن يكون للرجال دون النساء.

أما حق المرأة فى التعليم بكل مراحله وأنواعه، حتى الدينى منه، فمكفول للمرأة والرجل على سواء، ولم يجادل أحد من هؤلاء العلماء فى هذا الحق، ولم يحده بأى حد، والدليل على ذلك أنه كان فى كلية الإلهيات والعلوم الإسلامية عدد غير قليل من الطالبات، سواء فى مستوى الليسانس، أم فى مستوى ما فوق الليسانس، وكانت فى أصفهان سيدة تدعى بانو أمين متبحرة فى علوم التفسير والدين بعامة، وقد حصلت على «إجازة» من آية الله العظمى مرعشى نجفى وغيره من كبار رجال الدين، ولها تفسير للقرآن.

الموقف من الموسيقى والغناء

إذا كان موقف رجال الدين من تحرير المرأة لا يخلو من حجج، فإن موقفهم من الموسيقى والغناء موقف يتسم بالحمق والجهل وضيق الأفق.

فهم يقولون إن الموسيقى والغناء حرام، ويستندون فى ذلك إلى الآيات القرآنية التالية:

(أ) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[1].

(ب) ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾[2].

فهم يزعمون أن «اللغو» هو الموسيقى والغناء، وكذلك «لهو الحديث»، وهو زعم باطل لا يشهد عليه أى شاهد: لا من اللغة، ولا من الاصطلاح. بل المقصود باللغو وبلهو الحديث: الهزل والكلام الماجن، وما لا معنى له من القول ولا شأن لهذه المعانى بالموسيقى ولا بالغناء. فالموسيقى ليست كلاما حتى تعد من لهو الحديث؛ واللغو هو الكذب والباطل، والموسيقى ليست قولا خبريا حتى توصف بالكذب. وإذن فليس فى هاتين الآيتين أية إشارة من قريب أو من بعيد إلى الموسيقى وإلى الغناء.

---

(١) سورة لقمان الآية ٦.

(٢) سورة الفرقان الآية ٧٢.

ومن رجال الدين مَن يضيف إلى الاستشهاد بهاتين الآيتين الاستشهاد بأحاديث يؤولها بنفس الطريقة الزائفة، كما فعل سيد مرتضى علم الهدى فى كتابه: «ساز وأواز» (قم، سنة ١٩٧٧). ومن السهل الرد عليه بعشرات من الأحاديث التى تروى أن السيدة عائشة، زوجة النبى، كانت تستمع فى بيتها إلى موسيقى الطبول والدفوف، وأن النبى ﷺ دخل عليها مرات وهى تستمع إلى العازفين فلم يستنكر صنيعها هذا، ولم يطرد العازفين.

على أن مسألة تحريم أو تحليل الموسيقى قد أشار لها بعض المؤلفين عن الصوفية تحت باب: «السماع». وذكروا آراء المؤيدين للسماع أى الموسيقى والمنكرين له. ونحن نعلم أن بعض الطرق الصوفية تلتزم بالسماع، مستعملين: إمّا الناى، كما تفعل المولوية (طريقة جلال الدين الرومى)، وإمّا الدف والطبول (كما تفعل طرق صوفية عديدة كالتيجانية)، وبعضها يلجأ إلى الرقص مع الموسيقى والغناء، وهم الذين يسميهم الأوروبيون باسم: «الدراويش الدوارين» Derviches Tourneurs (ومنهم المولوية).

ومن غرائب ما فعلته «الثورة الإسلامية» غداة نجاحها فى سنة ١٩٧٩ أن حظرت الموسيقى والغناء، فاضطر المطربون والمطربات الإيرانيون إلى مغادرة إيران إلى أوروبا وأمريكا. وكانت فى إيران كوكبة عظيمة منهم، نخص بالذكر منها: مرضية، وكوكوش، وعهدية، ومهاستى من المطربات، وعارف، وداريوش من المطربين.

ولتبرير هذا الإجراء الشاذ زعم قادة الثورة الإسلامية أن الموسيقى تسبب انحلال الأخلاق وفساد النفوس! وأذكر أن صحفية إيطالية أجرت حديثا مع الإمام الخمينى وسألته فيما سألته: هل موسيقى بيتهوفن وفاجنر وفردى يؤدى سماعها إلى الانحلال وفساد الأخلاق؟ فأجاب الخمينى: مَن هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم؟ إننى لم أسمع عن أحد منهم فى حياتى!

إن تحريم الثورة الإسلامية للموسيقى والغناء هو إهدار شائن لجانب من أجمل جوانب الحضارة فى إيران الإسلامية، ويدهش المرء من هذا الحرص المرضى لدى رجال الدين فى إيران على إشاعة الحزن فى الحياة وإسبال السواد على كل نشاط إنسانى، وجعل الحياة الدنيا مأساة دائمة. أما كفاهم ما يجرى فى يوم عاشوراء من ضرب للصدور «سينه زنى» بالأكف الغليظة أو السلاسل الحديدية. ومن بكاء وعويل يومين متواليين (٩، ١٠ المحرم)

وطوال عشـرة أيام فى الروضات الحسينية؟! أما كفاهم أربعة عشر يوما فى العام يتذكرون فيها وفيات النبى وفاطمة، والأئمة الاثنى عشر؟![1].

ولقد كان من المآثر الجليلة لعهد محمد رضا شـاه اهتمامه بالموسيقى الإيرانية التقليدية وإدخاله الموسـيقى الأوروبية الحديثة فى المعاهد الموسـيقية وتشـجيع تقديم الكونشرتات والأوبـرات وتخصيص قاعة جميلة لذلك هى: تالار رودَكى (عند تقابل شـارع بهلوى مع شارع شاه رضا).

وقد رصد المراقبون اهتمام الشعب الإيرانى بمختلف طبقاته بالموسيقى وبحضور الحفلات الموسيقية.

المشتغلون بالفلسفة

ومن رجال الدين من اشـتهر بالاشتغال بالفلسـفة والتأليف فيها، أشهرهم فى النصف الأول من القرن الماضى «العلامة» سـيد محمد حسـين طباطبائى، الذى وُلد فى تبريز سنة ١٩٠٣ من أسـرة علماء، وقد واصل دراساته فى العلوم الدينية فى النجف. وعاد إلى إيران وقـام بتدريس التفسـير والفقـه وأصول الفقـه والحكمة الإلهية فى حـوزة علمية قم. فى مدينة «قم».

لكن ما يميزه من سائر رجال الدين فى إيران هو اطلاعه الواسع على الفلسفة الأوروبية، وعلى الأيديولوجيات الأوروبية الحديثة والمعاصرة. ومن هنا قام بنقد موسـع للماركسـية. وأهم إنتاجه فى ميدان الفلسفة كتابه: «أصول فلسفة وروش رياليستم» وقد طبع فى طهران مـع مقدمـة بقلم مرتضى مطهرى، فى ثلاثة أجزاء مجموعة فـى مجلد واحد ج ٢ بتاريخ اسفند ١٣٣٣هـ ش، ج ٣ مردادماه هـ ش) أى «أصول الفلسفة والمنهج الواقعى».

وفـى هذا الكتاب عـالج طباطبائى أمهات المسـائل فى الفلسـفتين القديمة والحديثة مثل:

- الإمكان والوجوب الجبر والاختيار.
- العلة والمعلول.
- الإمكان والفعل، الحركة، الزمان.
- الحدوث والقدم، التقدم، التأخر، المعية.

(١) المرجع السابق.

- الوحدة والكثرة.
- الماهية، الجوهر والعَرَض.
- إلهيات: إله العالم، والعالم.

وقد أورد فى أثناء عرضه آراء فلاسفة الإسلام، وقارنها بآراء الفلاسفة المحدثين.

□□□

obeikandl.com